إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الثانية عشرة ـ العدد السابع والأربعون ـ خريف ١٤٠١ش/ أيلول ٢٠٢٢م

صص ١٣٨ ـ ١١٥

دراسة ملامح الغروتيسک في رواية "التجوّل فی أرض الغرباء" بقلم أحمد دهقان

زهرا مطيعی*
فاطمة حيدری (الكاتبة المسؤولة)**

الملخص

الغروتيسـک (المزاح بالألم) مصطلح فنی- أدبی يقوم من خلاله الكتّاب والفنانون بخلق مشاعر غير متجانسة ومتناقضة فی نفس الوقت لإظهار كل ما هو غريب ومتناقض وغير مألوف فی الوسط العام لدى المتلقی. بالنظر إلى الخصائص غير المنتظمة وغير المتجانسة، مثل التناقض والرعب والسـخرية والمبالغة والغرائبية، يخلق الكاتب شعوراً غريباً على حدود الضحک والخوف والاسـتياء، وروح الدعابة فی هذا العالم المضطرب الخالی من الفرح وعلى الرغم من أنه يسعى إلى رسم الابتسامة على الشفاه، إلا أن المرارة سيشعر بها المتلقی بعد تلقيه الموضوع. يقوم البحث الحالی معتمدا على المنهج الوصفی التحليلی بدراسـة ملامح الغروتيسک فی رواية "التجول فی أرض الغرباء" بقلم أحمد دهقان. فی هذه الرواية الواقعية، يتم سـرد جزء من عمليات فترة الدفاع المقدس (الحرب العراقية الإيرانية) فی أرض العراق بعين ناقدة وقد ابتكر الكاتب ملامح غروتيسـكية باستخدام عناصر اللهجة والحوار وتوظيف التشـبيهات والاستعارات فی ظل الحرب وظروفها – التی تحتوی على مشاهد وأحداث مفجعة – وصوّر أحداثاً مريرة من هذا المنطلق.

الكلمات الدلالية: أدب الدفاع المقدس، التجوّل فی أرض الغرباء، الغروتيسک، الواقعية، الفكاهة.

---

*. طالبة دكتوراه فی اللغة الفارسية وآدابها، فرع كرج، **جامعة آزاد الإسلامية**، كرج، إيران
. أستاذة مشاركة فی قسم اللغة الفارسية وآدابها، فرع كرج، **جامعة آزاد الإسلامية، كرج، إيران
fateme_heydari10@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ١٤٤٣/٠٦/٢٣هـق تاريخ القبول: ١٤٤٣/١٠/٠٦هـق

المقدمة

يستخدم الكتّاب والفنانون أساليب مختلفة للتعبير عن المفاهيم التى يرغبون فيها؛ يمكن اعتبار الغروتيسک[1] أى "المزاح بالألم" إحدى هذه الطرق. شق الغروتيسک طريقه من الرسم إلى الأدب فى فرنسا فى القرن السادس عشر. لوحات جدارية تُظهر مزيجاً من الإنسان والحيوان والنباتات والمخلوقات الخيالية. مع دخول هذا الفن إلى مجال الأدب، اهتمّ الكتّاب به كأداة ووسيلة لخلق أعمال من قبل القارئ تمنحه فرصة أكثر للتفكير، وأدّى إلى خلق شخصيات مثيرة للشفقة ولكن نظراً لظروف الكاتب وإبداعه، لم يكن تركيز الغروتيسک على الشخصية فحسب بل أصبح أداة للتعبير عن الأحداث المريرة والمروعة بقلم فكاهى أيضاً.

ويتم وصف المشهد أو القصة بطريقة غريبة (غروتيسكية) حيث توضع الموضوعات المتباينة والمتناقضة معاً بطريقة غير معتادة، مما يخلق إحساساً متضارباً ومقرفاً ومثيراً للاستياء لدى المتلقى؛ شعور ممزوج بالخوف والضحک، والقبيح والمضحک، ويضع القارئ على حدود الضحک والانزعاج فى نفس الوقت، بينما يظهر غرابة وعبثية العالم، كما يذكرنا بالطبيعة الكوميدية والمأساوية للحياة.

بعد التغييرات فى المجتمع والحوادث المؤسفة مثل الحروب والكوارث وما شابه ذلک، خلقت بعض الأعمال فرصة للكُتّاب لظهور الغروتيسک، جنباً إلى جنب المشاعر الداخلية للشخص، كما أن الفكاهة والمزحة توفر أيضاً مزيداً من الأرضية لظهور الغروتيسک وتقديم رسالة للقارئ.

فى مجال الدفاع المقدس، تناول أحمد دهقان فى كتابه "التجول فى أرض الغرباء"، على عكس الأعمال الأخرى فى هذا المجال الذى يتعامل مع الجوانب الروحية لجبهة الحرب، تناول الحرب العراقية الإيرانية التى استمر لثمانى سنوات، من منظور مختلف. تحتوى هذه الرواية على أحداث الحرب المكشوفة. واستخدم الكاتب بوعى أو بغير وعى، الغروتيسک (المزاح بالألم) فى أجزاء من الرواية، وفكاهته هى أداة لتصوير ظروف الشخصيات الصعبة فى الرواية. يتم استخدام الدعابة والمزاح فى الرواية

1. Grotesque

لتقویة روح الشخصیات لجعل الجو سعیداً؛ لکن الألم وشدة الحزن تظل مرارتهما فی مذاق القارئ إلی جانب هذه الدعابات؛ لأن الجو الممزوج بالخوف والرعب الذی سببته الحرب والبرد السائد فی المنطقة یسودان علی المزحات بمرات. فی هذا العمل، یتم تصویر قصة أخری عن تضحیة القوات المناضلة فی عملیة جرت فی منطقة ماوت بالعراق.

أسئلة البحث

۱. ما هی عناصر الغروتیسک فی روایة "التجول فی أرض الغرباء"؟
۲. ما هو تأثیر الفضاء والنبرة فی خلق الغروتیسک فی الروایة؟
۳. ما علاقة الغروتیسک بالفکاهة والواقعیة فی الروایة؟

فرضیات البحث

۱. یمکن رؤیة ملامح ومشاهد غروتیسکیة فی روایة "التجول فی أرض الغرباء".
۲. تلعب الظروف (الجو السائد) واللهجة دوراً فعالاً فی خلق الغروتیسک فی الروایة.
۳. الفکاهة والاستیاء الموجودان فی الغروتیسک مقتبسان من الحقائق التی حدثت فی الحرب ویخلقان شعوراً غیر متجانس فی نفوس المتلقین.

خلفیة البحث

تم نشر العدید من المقالات فی مجال الغروتیسک، ومنها:

– مقال بعنوان «عناصر گروتسک ومدرن‌گرایی در رمان شازده احتجاب گلشیری» (عناصر الغروتیسک والحداثة فی روایة الأمیر احتجاب لـ هوشنک کلشیری) (۱٤۰۰ش) من تألیف السید إسماعیل قافله‌باشی وفرشته حسینی، ونشر فی فصلیة رقم ۳۸ من دراسات اللغة والأدب الغنائی. تناول فیه المؤلفون الغروتیسک فی قصة الأمیر احتجاب بالاعتماد علی ثلاثة عناصر هی الرمز والموقف والشخصیة.

مقال «بررسی جلوه‌های گروتسک در آثار بهرام صادقی و اوژن یونسکو» (دراسة

المظاهر الغروتيسكية فى أعمال بهرام صادقى وأوجين يونسكو) (١٣٩٨ش) بقلم على رضا أسدى وعلى رضا شوهانى وفاطمة إسماعيلى نيا ونشر فى المجلة الفصلية لأبحاث الأدب الروائى بجامعة الرازى. وقد وجد المؤلفون فى هذا العمل، أثناء تقديمهم للعناصر الغروتيسكية وخصائصها، من خلال تحليل أعمال أوجين يونسكو وبهرام صادقى، العديد من المظاهر المتعلقة بعناصر الغروتيسک وذكروا أن هذين الكاتبين قد نظرا بوعى وإدراک فى التعبير عن العناصر الغروتيسكية فى أعمالهما.

مقال بعنوان «بررسى عناصر گروتسک در رمان خوف اثر شيوا ارسطويى براساس نظريات ميخاييل باختين، فيليپ تامسون وولفگانگ كايزر» (دراسة العناصر الغروتيسكية فى رواية الخوف لشيوا أرسطويى بناءً على نظريات ميخائيل باختين وفيليب طومسون وفولفغانغ كايزر) (٢٠١٧)، بقلم سعيدة جاور وناصر على زاده، والذى نشر فى العدد ٢٣٧ من دورية اللغة الفارسية وآدابها بجامعة تبريز. فى هذه المقالة، قام المؤلفان فى تلک الرواية بتحليل العناصر الغروتيسكية مثل التشويه (المسخ)، والجانب الرمزى، وتباين الجوانب الهزلية والمأساوية، والسلوكية غير السوية، وخلق شخصيات خيالية بخصائص شيطانية، وما إلى ذلک، واعتبراها عملاً جديداً فى مجال الأدب الإيرانى.

وفى مقال «تبيين گروتسک در عزاداران بيل» (شرح الغروتيسک فى عزاء بيل) (١٣٩٦ش)، بقلم عبد الله مير على حسن زاده ونيلوفر أنصارى، نشر فى مجلة رخسار زبان، العدد ٣، قام المؤلفون، بالبحث عن عناصر الغروتيسک، و مؤلف الرواية جعل كباقى أعماله مشاكل مجتمعه الاجتماعية والسياسية، موضوعاً لهذه الرواية واستخدم الغروتيسک كوسيلة للنظر إلى العالم والإنسان وكل صفاته الحسنة والسيئة.

مقال «بچه‌هاى قاليباف‌خانه اثر هوشنگ مرادى كرمانى» (دراسة وتحليل العناصر الغروتسيكية فى قصة أطفال حياكة السجاد لهوشنک مرادى كرمانى) (١٣٩١ش)، بقلم على صفائى وحسين أدهمى، والذى تم تقديمه فى ملتقى الدراسات الأدبية بجامعة شهيد بهشتى. وتناول دراسة العناصر الغروتيسكية للرواية وعلاقتها بالمدرسة الطبيعية والفكاهة.

مقال «تلفيق احساسات ناهمگون ومتضاد گروتسک در طنز ومطايبه» (المزج بين المشاعر الغروتسيكية المتباينة والمتناقضة فى السخرية والفكاهة) (١٣٩١ش) بقلم

فاطمة تسـليم جهرمی ویحی طالبیان؛ تم نشـره فی العدد الأول من مجلة الفنون الأدبیة فی أصفهان. تناول فیه المؤلفان موضوعات غروتسیکیة فی السخریة والفکاهة، وبالنظر إلی أحد الفروع الغروتسـیکیة فی السخریة والفکاهة، أی ما یسمی بـ(الکاریکلماتور أی الکاریکاتور بالکلمات)، وبعد دراسـة خصائص الکاریکلماتوریة لبرویز شـابور، وجدوا أنها تحتوی علی عنصرین من التناقض والمبالغة.

وتعتبر روایة "التجول فی أرض الغرباء" من الأعمال التی تمت دراسـتها فی مجال أدب المقاومة. والتی تشمل:

مقال (ثمن العثور علی شخص فی ساحة الحرب: نظرة علی روایة التجول فی أرض الغرباء) (۱۳۸۹ش) لفرحان علی زاده؛ تم نشره فی کتاب ماه ادبیات.

مقـال بعنـوان «بازنمـود پدیدهٔ اجتماعی جنـگ در رمان پرسـه در خاک غریبه براسـاس روش تحقیق کیفـی- نظریه مبنایـی» (تجلی الظاهـرة الاجتماعیة للحرب فـی روایة "التجول فی أرض الغرباء" علی أسـاس منهج الدراسـة النوعیة- النظریة الأساسیة) (۱۳۹۲ش) لفریدة داوودی مقدم ومنصورة شاه محمد میراب، فصلیة الأدب الروائی فی جامعة الرازی.

مقال بعنوان «بررسـی ناتورالیسم در ادبیات داستانی جنگ» (دراسة الطبیعة فی أدب الحرب الروائی) (۱۳۹۷ش)، بقلم مهدی خادمی کولای ونسیم حسن بور إیلایی، مجلة أدب المقاومة بجامعة کرمان.

مقال بعنوان «سـبک شناسی لایه‌ای داسـتان پرسه در خاک غریبه احمد دهقان» (أسلوبیات الطبقات فی روایة التجول فی أرض الغرباء لأحمد دهقان) (۱۳۹۸ش) بقلم منوتشهر أکبری وعمران صادقی، مجلة أدب المقاومة بجامعة کرمان.

کما یبدو أن هذه الروایة لم یتم دراستها من منظور الغروتیسکیة.

منهج البحث

اعتمد البحث فی هذه الدراسـة علی المنهـج الوصفی التحلیلی. ومن خلال تعریف الغروتیسـک تمت دراسة العناصر الغروتیسکیة وعلاقتها بالفکاهة والواقعیة، فی روایة

"التجول فى أرض الغرباء".

الغروتيسكية وخصائصها

ترجمت لفظة الغروتيسک باللغة الفارسية على أنها «السخافة، الشيء المضحک، الإحراج، الغرابة، الأمر الذى لا يصدق، وغير المعقول، العجيب والغريب، الخيالى، غير المألوف، غير المتناسق، وغير المتوازن.» (ثابت قدم، ١٣٨٣ش: ٢٠١) تخلق الغرابة والتناقض وعدم الاتساق إحساساً مزدوجاً ومختلفاً لدى المتلقى، كما أن وجود السخرية والرعب جنباً إلى جنب يترک شعوراً غريباً فى النفس. «الغريب فى علم الأدب، أو فى لغة الفن، يشير إلى الإنتاج الذى يصور التنافر، والتناقض، وعدم التجانس، والسخرية فى العالم الواقعى الذى هو خارج التصور، أو تدمير العالم وشره وعبثيته.» (المصدر نفسه: ٢٠٢) يسود هذا الأسلوب عادة فى المجتمعات التى تتمثل سماتها الرئيسة فى الصراع أو النزاع، التغيير والالتباس. (انظر: طومسون، ١٣٩٠ش: ١٤)

إن الشعور بالتناقض والغرابة عند قراءة عمل غروتسيکى، هو أهم تأثير يحدث للقارئ فى الوهلة الأولى. والفكاهة والضحک فى الغروتيسک لا يقترنان بالفرح والسعادة أبداً؛ بل إنهما يثيران نوعاً من الخوف والرعب والاستياء والقرف لدى القارئ. يمكن العثور على أمثلة عديدة لهذا النوع من المشاعر فى كتاب المسخ لكافكا. إن تحول الإنسان إلى حشرة كبيرة، بأفكار بشرية ورهبة غير إنسانية، يخلق نوعاً من الصراع العاطفى فى نفوس المتلقين. التخيل لم يجعل رواية كافكا فكاهية ومضحكة. بل إنها أوجدت الخوف والرعب فى العقل اللاواعى، مما قد يشكل تهديداً لذهول الشخص وجهله.

إن الغروستيک تبدو مختلفة فى نظر كل من إيوا كوريلوک[1]، جيفرى جالت هارفام[2]، ميخائيل باختين[3] وولفغانغ كايزر[4]. ويعتبر كل من باختين وقيصر من أعظم المنظّرين فى هذا المجال. فى كتابه "غروتيسک فى الفن والأدب" بعد الحرب العالمية الثانية،

1. Oakuriluk
2. Jeffrey Galt Harfam
3. Mikhail Bakhtin
4. Wolfgang Kaiser

رکز کایزر اهتمامه علی الأدب الألمانی والفرنسی والفنی کتعبیر رومانسی فی تعریف الغروتیسک. فهو یعتقد أن الغروتیسک هو عالم غریب ویبدو أنه تعبیر عن قوة غیر مفهومة وغیر شخصیة. غروتیسک هی لعبة مع سخافات وخلقها هو محاولة لاستدعاء وإخضاع الأبعاد الشریرة فی العالم. (آدامز ییتس، ۱۳۹۸ش: ۳۳-٤۱)

لکن الغروتیسک له معنی أکثر إیجابیة فی رأی باختین، علی عکس کایزر، فإنه یری الغروتیسک یتعلق بالضحک والکومیدیا ویحاول «إخراج الغروتیسک من قلوب الکرنفالات الشعبیة والصاخبة وینظر إلی هذه الکرنفالات علی أنها النظام الحاکم؛ النظام الذی کل شیء فیه یسیر بالضحک والنکات والاستهزاء، علی عکس النظام الحاکم. حیث یضع الناس أقنعة وصوراً غریبة أو مضحکة أو مخیفة علی وجوههم وتظهر فی أکثر الصور عریاً وبدائیة.» (شربتدار وأنصاری، ۱۳۹۱ش: ۱۱۲)

فی المصادر المکتوبة عن الغروتیسک، لم یتم ذکر تأثیر المحفزات الاجتماعیة والسیاسیة والاقتصادیة فی الغروتیسک بوضوح. علی الرغم من أن الغروتیسک نشأ فی العالم الغربی، إلا أنه یجب القول، یختلف هذ الصنف عن هیکلها الغربی فی الأدب الفارسی کالعدید من المدارس الغربیة. «لقد شهد معظم الکتّاب والشعراء الذین تناولوا الغروتیسک فی أعمالهم بشکل مباشر أو غیر مباشر، تغییرات وتطورات اجتماعیة، ووقائع وأحداثاً اجتماعیة أو تاریخیة مؤسفة مثل الکوارث والأزمات والحروب والقتل وما إلی ذلک، أو تأثروا بهذه التیارات.» (تسلیم جهرمی وطالیبیان، ۱۳۹۰ش: ٤)

یمکن للأحداث المریرة والبارزة مثل النزاعات والصراعات والحروب التی تتمیز بطبیعة الحال بأجواء ومشاهد مؤلمة ومرعبة، أن تخلق جواً غروتیسکیاً بشعاً فی القصة من خلال إضافة شعور متناقض. وعادة یتجاوز ذلک کونه شعوراً غریباً، فیحفّز تفکیر القارئ ویجعله یبحث عن السبب. لذلک، یخلق الکاتب أحیاناً عن غیر قصد أجواء ومشاهد غروتیسکیة. (انظر: طومسون،۱۳۹۰ش: ۸۰)

روایة "التجول فی أرض الغرباء"

تدور أحداث الروایة حول القوات الإیرانیة التی تم إرسالها لتنفیذ عملیات من

الجنوب إلى غرب البلاد لإنقاذ أشخاص هاجمتهم قوات صدام بمساعدة القوات الكردية العراقية. الجو بارد جداً. يتم وضع القوات فى مجموعات صغيرة تحت إمرة قادتها؛ ومن أجل التغطية على العملية، يتم وضعهم فى قطار مع عدد من الحيوانات والمواشى لنقل الإمدادات والمعدات من محطة مهجورة. جمال هو قائد المجموعة التى يتواجد فيها عبد الله وإبراهيم وزكريا وبهرام. عبد الله، هو الشخصية الرئيسة فى الرواية، يهرب أحياناً من ذكرياته ويذكر حبه السابق شيرين وهى مطربة فى أحد الملاهى. بعد الثورة وبدء الحرب جاء الى الجبهة لينسى شيرين. لهذا السبب، هناك فرق بينه وبين المحاربين الآخرين.

بعد الوصول إلى المكان والاستيلاء على الحيوانات لنقل الحمولات إلى منطقة العمليات، ستتوجه القوات المعنية إلى مدينة ماوت بالعراق. استشهد العديد من الجنود بعد هجمات العدو. فقطع الرؤوس ورمى الجثث على الأشجار وقتل الحيوانات، يخلق مشاهد مفجعة ومروّعة. فى ظل الصراع المحتدم بين المقاتلين الإيرانيين والقوات العراقية، وصل اللاجئون الأكراد المطلوبون والملاحقون لعدة أيام من قبل قوات الحرس العراقى إلى المضيق وتم إرسالهم إلى خلف الجبهة بمساعدة القوات الإيرانية.

فى وسط السهل، قرية صغيرة ذات عدد قليل من السكان تعيش مع شيخهم ومرشد لهم ورغم الظروف القاسية والاعتداءات الشديدة، فهم لا يغادرون قريتهم. يستقطب الرجل العجوز قوى كثيرة بأقواله وسلوكه النبوى، لدرجة أنه بعد عودة القوات واستبدال القوى الجديدة، يعود عبد الله الذى تغير وتلاشى حبّه لشيرين؛ إلى القرية لإقناع الرجل العجوز والقرويين بمغادرة المنطقة؛ لكنه يرى من أعلى الوادى أن المنطقة تعرضت للقصف بالقنابل الكيماوية وأن السهل والقرية الصغيرة تختفيان تحت الغبار.

ملامح الغروتيسک فى رواية "التجول فى أرض الغرباء"

الجنوح والكوميديا والرعب: إن خلق إحساس بالتناقض، هو أحد أبرز سمات الغروتيسک. ويعدّ الضحک والخوف من بين المشاعر المتضاربة التى تنتج عند قراءة قصة غروتيسكية. «الكتّاب الذين كتبوا عن الغروتيسک، ربطوه دائماً بالهزل أو

الرعب. هناک من یرون الغروتیسک أنه شکل فرعی من الکومیدیا، فهم فی هذه الحالة یصنفونه ضمن المهزأة المبتذلة أو البورلسک[۱]، وآخرون یؤکدون علی الجانب المروع للغروتیسک، فهم فی هذه الحالة غالباً ما یجرّونه إلی عالم مجهول وغامض، وحتی الخارق للطبیعة. بطبیعة الحال، هناک العدید من النقاط بین هذین القطبین، ولکن باستثناء بعض الموارد فی الفترات المبکرة، فإن رؤیة الغروتیسک کظاهرة تجمع کلاً من الکومیدیا والرعب فی مزیج معقد، هو اتجاه جدید نسبیاً.» (طومسون، ۱۳۹۰ش: ۲۵) أحد ملامح الغروتیسک، هو التشوه من الناحیتین الجسدیة والنفسیة. التناقض فی الغروتیسک، هو نوع من الجنوح أو الشذوذ الذی یظهر معه الصراع والمشاعر غیر المتجانسة. فی کتاب "الغروتیسک"، یناقش طومسون التشوه الجسدی بالإشارة إلی روایة مسخ لکافکا وحالة جریجور فیها، ویشیر إلی أن «الغروتیسک یرتبط ارتباطًا وثیقاً بالتشوّه الجسدی.» (المرجع نفسه: ۱۲) طریقة استخدام الغروتیسک فی روایة "التجول فی أرض الغرباء" مرتبطة بالمکان والزمان والسرد والأحداث التی وقعت فیها. یعود مبدأ الحرب إلی أسباب نفسیة. مما یؤدی إلی بدء الحرب من قبل الجانب المعادی ویوفر الظروف لمهاجمة وغزو دولة أخری. تجلب الحرب الخوف والرعب، حتی أن کلمة "الحرب" وحدها تخلق صورة مریرة فی المستمع. لکن الکاتب فی بعض مشاهد روایة "التجول فی أرض الغرباء"، یصور للقارئ مشاهد مزعجة ومخیفة یمزجها بتشبیهات مضحکة. وما یمکن رؤیته وراء هذه النبرة السخیفة والسرد، لیس طبیعتها الهزلیة والممتعة، وإنما الکاتب لجأ إلی هذا الأسلوب لیصور "الموت" و"المشاهد المؤلمة" لأشخاص أتوا لإنقاذ أرواح زملائهم فی أرض غریبة. خلق دهقان شعوراً کومیدیاً فی الأجواء المرعبة التی سببها قصف العدو المتواصل من خلال تسمیة الحیوانات التی تحمل الذخائر وتوصیفها بـ- آق ماشال وصاحب الساق السوداء. «آق ماشال الذی شعر بالموت، وقف للحظة وتنهد نخّر وصاحب الساق السوداء الذی کان إلی جانبه

۱. البورلسک (المهزأة) یعنی المزاح والسخریة والمحاکاة الساخرة. وهو عمل أدبی میزته المبالغة السخیفة. یتم تقدیم أسلوب نبیل أو موضوع جاد بشکل سخیف، أو یتم التعبیر عن المشاعر الحقیقیة بشکل مبالغ فیه ومثیر للاستیاء، والعکس صحیح.

صرّ أذنيه للاستماع. لم يتوقف أق ماشال. ألقى صندوق الذخائر على الأرض وهرب. ورأى بقية البغال تجرى خلفه ... بدأ قصف الطائرة يدور مثل آلة الخياطة. تشبث الحشد على الأرض ... كان الحشد خائفاً، وبمجرد أن أراد أن يتنفس الصعداء، نزلت الطائرة الثانية من أعلى الوادى. عبد الله الذى لم يتحرك من مكانه كفزاعة الحقل، فجأة رأى إطلاق قذائف من تحت الطائرة، كان لديه ساقان، واستعار ساقين وركض ... قال ضابط المشتريات الطويل: كان قد سقط فى وسط الثلج – على بعد سبعة أو ثمانية أمتار من الخيام المشتعلة – ورفرف مثل الدجاجة المذبوحة.» (دهقان، ١٣٩٣ش: ٧٦) وفى تعبيره عن صعوبات العملية، يعبر دهقان عن الرعب الذى أحدثته تلك العمليات بطريقة كوميدية وهكذا يؤثر على مشاعر القارئ.

بهذا الوصف، ألا يؤدى الانعكاس الهزلى والمضحک لمشاهد الحرب بلغة وتصوير جديدين، إلى الانتقال من اليأس والخوف إلى واقع الحياة والموت؟ اليأس والإحباط والخوف من الأمور المنبوذة والمنهى عنها فى المعتقدات الدينية: "وَلَا تَيأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ"[١]، ويبدو أن محاولة الكاتب، قد بُذِلت للتغلب على المسائل المحرمة والمنهى عنها فى الدين وخلق رد فعل يقوم على حقيقة أن الشىء المخيف يمكن تلطيفه بالفكاهة والضحک كما يمكن الشعور بالمتعة الذى ينتجه الانحراف عن القاعدة فى الموقف أحياناً.

«الأضواء والمفرقعات النارية الملونة فى الهواء نشرت ألواناً مختلفة وجميلة فى الثلج. فبدا الأمر كما لو أن الجميع قد دعوا إلى حفلة رائعة جداً.

- لو تسمعها منى، الحرب ليست سوى احتفال بالموت.
- يا عينى على التبذير والتكلفة اللى فيها!
- ما زال هذا التبذير مستمراً يا صاحى، دع الدف والطبل يبدأ، فحينها سترى كيف يقطف الإنسان كله كالثمرة الناضجة من أصله. (المرجع نفسه: ١٠٢)

من أبرز المشاهد الغريبة فى هذه الرواية موت الجحش وهو حمار صغير ومرح، والذى صوره الكاتب مع والديه فى أجزاء من الرواية.

١. يوسف/٨٧.

«کان الحمار یقف بلا حراک أسفل جبل من الثلج – فی وسط الثلج.

یا بهرام، اذهب واحصل علیه، سیکون لدیک واحد آخر!

کان الحشد فی حال الضحک والمرح عندما ابتعد بهرام عن الطابور ... وصل وأول شیء واجهه، هو رقاقة ثلج صغیر یمتد من أنف الحمار إلی الثلج المتجمد. کانت عینا الحمار مفتوحتین ولکنهما لم ترمشا ... أمر لا یصدّق. کان الحمار واقفا مجمّداً! یرقد بجوار جثتی حمارین – والده ووالدته – وسط الثلج.» (المرجع نفسه: ۲۳٦–۲۳۷)

خلقت الفکاهة فی عبارة رقاقة الثلج علی أنف الحمار، ووقوفه المتجمّد فی الثلج بجوار جثث والدیه مشهداً غروستیکیاً.

المبالغة والإفراط: إن المبالغة والإفراط فی الغروتیسک یجعله قریباً من الخیال. (أنظر: طومسون، ۱۳۹۳ش: ۲۷) کل شیء ممکن فی عالم الخیال (الأناقة) وهو واضح من قبل القارئ؛ إن ابتکار العمل الغروتیسکی فی الواقع مصحوب بالخیال، وعلی الکاتب أن یتجنب المبالغة فی إبداعه حتی لا یدخل فی فضاء الأناقة.

ما نراه فی روایة "التجول فی أرض الغرباء" هو حقیقة الحرب. الکاتب نفسه کان حاضراً فی ساحة المعرکة وشهد مثل هذه الأحداث، ولا ینوی المبالغة والمغالاة والتخیل لما حدث. لکن ما یمکن اعتباره تجاوزات للروایة، هو تعبیر عن مأساة الحرب التی یعبّر عنها الکاتب بالسواد، فی عملیة یعتقد أنها فاشلة وتجوّل فی أرض أجنبیة وهی العراق.

الروایة هی سرد للعالم الحقیقی، بعیداً عن الخیال والأوهام، وهو یصوّر ما حدث علانیة. لقد صورت الأجساد المقطعة، والتفجیرات المتتالیة، والثلج والبرد الهائل، أبعاد الرعب الغروتیسکیة والنبرة الفکاهیة للکاتب، صوّرت الجانب الآخر من الغروتیسک.

حقیقة وجود أشخاص مختلفین مع وجهات نظر مختلفة للعالم لیست بعیدة عن وجهة نظر الکاتب. إن وصف الأشخاص ذوی السمات الحقیقیة ولکن غیر التقلیدیة فی جو الحرب، یأخذ القارئ بعیدًا عن رعب البیئة المحیطة للحظة.

فی ظل إنشاء شخصیة جمال، قائد الفرقة الذی ینوی بالإضافة إلی العملیات، إنقاذ حیاة قواته، یقوم الکاتب بالجمع بین العناصر غیر المتجانسة وغیر المتوافقة. ویسلط

الضـوء على رقبة جمال الطويلـة والفضفاضة: «بهذه النظرة السـوداء المحترقة والرقبة الطويلـة المترنحـة، كان يأتي وذهب.» (دهقـان، ١٣٩٣ش: ٤١) «كانت رقبته الطويلة رخـوة فضفاضة» (المصدر نفسـه: ٥٦) «أصبح جمال يعتني بقواتـه أكثر من أي وقت مضى. وهـو برقبته الفضفاضة، كان يأتي ويذهب باسـتمرار.» (المصدر نفسـه: ١١٨) عادة الوصف الممزوج بالفكاهة والسخرية يخفف من الرعب في أجواء الحرب، وتُروى مشـاهد العملية ببعض الأوصاف المضحكة في ظل أجواء الخوف والرعب التي تسود المنطقة المعرّضة للقصف بكل أنواع الأسـلحة ويستشـهد فيها عدد من الجنود بوحشية. يصوّر الجو الغروتيسـكي شعوراً سـخيفاً ممزوجاً بالاسـتياء والرعب. نشعر بنوع من السخرية في كلام الكاتب؛ ولكن لا يقصد الاستهزاء بجمال، وراء هذا النوع من التعابير يصف جهود وشجاعة هذا القائد الشاب. في نهاية الرواية يستشهد القائد الشاب جمال وتحدث إحدى المشاهد المؤلمة حيث أخذ الوالد جسد ابنه إلى الجزء الخلفي من الجبهة، والـده هو سـيد ولي صاحب ذلك المقهـى الذي كان يتردد عليه عبد الله، الشـخصية الأخرى في الرواية، قبل الثورة.

التغريب: ينشـأ الغروتيسـك من خلال صدمة مفاجئة. الفكاهة والسخرية وحتى الإساءة في القول المستخدمة فيها، تخلق الدهشة والغرابة وتربك الجمهور وتغير مسار نظرته الطبيعي للعالم. (انظر: طومسـون، ١٣٦٩ش: ١٠٠) بالغروتيسـك، يمكنك تقديم وجهـة نظر أخرى للقـارئ، وبهذه الطريقة يمكنك مواجهته ببيئـة مختلفة وغير مألوفة، ومزعجة تلفت المزيد من الانتباه.

إن النظرة السـائدة للمجتمع فيما يتعلق بالحـرب العراقية الإيرانية هي وجهة نظر مقدسـة ودفاعية. دفاع الناس عن العـدوان بالاعتماد على المعتقدات، أدى إلى حماية الحـدود والأرض. لكن هذا المعتقد في قصة "التجول في أرض الغرباء" يرافقه شـكل غير مألوف، يوجه ضربة غريبة على العناصر المألوفة في معتقدات القارئ. من الممكن اعتبـار التعاريف وبعـض المزحات في الروايـة اغتراباً يختلف عـن أجواء القصص الأخرى للدفاع المقدس والتي غالباً ما تمتاز بالروحانية.

التأثير النفسـي: إن للغروتيسـك تأثير في التخلّص من التأثيرات النفسية السيئة

إلی جانب خلقه التوتر فی نفس الوقت. والضحک فی الغروتیسک لا یأتی من أعماق القلـب، بل جانبه المخیف یجعل الضحک جافاً؛ والعکس صحیح أیضاً. ورد الفعل علی الاسـتیاء الموجود ینهار أیضاً مع الجانب المضحک من الغروتیسـک. (المصدر نفسـه: ۱۰۱)

لا یمکن تجاهل التأثیر النفسـی للحرب فی نفوس الناس العادیین والمشارکین فیها. یسـتخدم دهقان "آلیة نزع السلاح ذات الأثر النفسی" أثناء توظیف وتسلیط سلالة من الکومیدیـا فی أجواء مرعبة، بینما یروی صـورة حقیقیة للحرب، ویثیر القلق والخوف الناجم عن الحرب باسـتخدام الکلمات والذکریات والتشـبیهات والاسـتعارات. فی مشـهد من الروایة، بعد القصف الصاروخی، بقی بعض الجنود تحت الجلید فاستشهدوا. «لم یخرج أی منهم حیاً. شـخصان فقط – وهمـا کانا یحملان جرحی المجموعة – رغم أنهمـا أصبحا کالفحم، ما زلت تعتقد أنهما علـی قید الحیاة. أخرجوهما من تحت الثلج بکل صعوبة ومشـقة. وقد مسـکا جانبی النقالة بإحکام ولم یترکاهـا. عبد الله وجمال وزکریـا، أقدمـوا علی فتح أصابعهما المجمـدة بکل ما لدیهم من قـوة وأخذوا النقالة مـن قبضتهما. کما توقفوا عن التنفس.» (دهقان، ۱۳۹۳ش: ۱۳۱) فی وصف المشـاهد المفجعـة، بالإضافة إلی الاهتمام بالمهمة المتمثلة فی سـرد الحقائق، یحاول الکاتب أن یبعد الخوف عن القارئ.

الغروتیسک والفضاء

احتل الغروتیسـک أکبر مسـاحة فی روایة "التجول فی أرض الغرباء". «ما یمکن رؤیته فی القصص الغروتیسـکیة الفارسیة مقارنة بآداب الأمم الأخری، هو خلق الجو والأحداث العامة التی تشـکل جواً غروستیکیاً فی شکل قصة. فی القصص الإیرانیة، تؤدی جمیع أحداث القصة، بما فی ذلک خلق الجو والمکان وما إلی ذلک، إلی خلق جو غروستیکی.» (محمدی فشارکی وآخرون، ۱۳۹۲ش: ۹٤)

أجـواء الروایة هی عبـارة عن الحرب والخوف، کان بهرام، وهو أحد شـخصیات الروایـة یتـداول أحیاناً الطرائف والنکات السـاخرة واسـتعادة الذکریات فی تلک

الظـروف الصعبة وغـير المنتظم، لرفع معنويات القوات، ممـا يخلق جواً مرحاً وفكاهياً فى البرد القارس والوضع القاسـى للعملية. لا شـك أن الذكريات التى تُروى بمفردها وخارج فضاء هذه الرواية، تجلب الدعابة والفكاهة للقارئ؛ ولكن هذه الفكاهة تحدث فـى جو ومكان الحـرب المرعبين، أجواء مصحوبة بشـكل طبيعى بالخوف والأحداث المرعبـة، لكن محاولة بهرام لتلطيف الجو ورفع الـروح المعنوية، تخلق دون وعى منهجاً غروتيسـكياً. وفى مثل هذا الفضاء، يخلق دهقان صوراً مضحكة لحقائق مثيرة للاستياء ويخفـى الخوف واليأس والألم والغضب الناتج فى سـاحة المعركة تحت غطاء كوميدى ومضحك من التشبيهات والاستعارات يؤثر على مشاعر المتلقين.

«سـقطت قذائف الهاون والمدافع على الأرض فى كل مكان. كانت السـماء تضىء مـرة وتنطفئ أخرى، والأرض ترتجف. انفجـر أحد المدافع فى منتصف الطريق ودهس سـتة أو سبعة جنود وأربعة بغال ... فبعد مشاهدة هذا الموقف، قام بعضهم بحفر الأرض المتجمدة، والتى كانت أصعب من الحديد الزهر. كان عليهم أن يموتوا ليتمكنوا من حفر قطعة من الأرض. كان بعضهم قد دفنوا أنفسـهم فى الثلج، ولكن كان على بعد الطريق أحـداث أخرى لم تقل رعباً عن هـذه؛ كانت الكلاب تأتى وتذهب وتنبح كما لو كانت مدعوة لحضور حفل زفاف. فى هذه الأثناء عندما رأى بهرام أنه لا يستطيع أن يضحك أحداً ولو للحظة، جاء وأخذ حبل آق ماشـال وسـحبه قائلاً: فى هذا المكان المزدحم حيث لا يتضح بعد كم لى من الوقت حتى الموت، أريد أن أذهب وأحقق أمنيتى الأخيرة فـى الحياة. منذ اللحظة التى رأيت فيها آق ماشـال، وقعت فـى حبه «كما لو كنت قد وجدت ما فقدته ... أريدك أن تقرأ لنا عقد مؤاخاة حتى نصبح إخوين حقيقيين. انفجر شـخص أو شخصان يشعران بالاسـتياء بالضحك ... أما الرصاصة التالية لم تمنح لأى شخص فرصة للانفجار من الضحك. سقطت قذيفة مدفعية على رأس الأرض. ولم يلبث حتى سمع صوت أنين وصراخ لم يتضح ما إذا كان صوت إنسان أم حيوان.»

يمتلك الغروتيسـك طبيعة متنافرة وغير متجانسـة وغير طبيعيـة يرتبط بالعدوانية والاسـتياء والتأثير النفسـى. فى رواية "التجـول فى أرض الغربـاء" نرى انحرافات وشذوذاً غروستيكياً فى فضاء الرواية ومشاهدها. بعد سقوط القذائف فى المنطقة، تنشأ

مشاهد رهیبة ومؤلمة.«یا أبا الفضل .. .کان بهرام هو من حدّق فی شجرة البلوط القریبة منهم، تظهر علیها شـخص بـلا ذراعین وأرجل معلق علی الأغصـان وکان الدم یقطر منه. والفروع ملیئة بالمعاطف الممزقة والملابس المتسـخة وقطع الجثث ... رأی الله مراد الکلاب قبل کل شیء. کانت منتشرة علی جانب الطریق. نظر جیداً. کانت تلعق الدماء علی الأرض بجشع. وقف مرتبکاً وشعر بالغثیان. شعر بأن فمه ملیء بالماء. کان یتجشأ ویستیقئ ما أکله منذ الصباح. جاء أحد الکلاب مسرعاً وأمام عیون مراد الله، بدأ بلعق السائل الذی نثر أمامه. الدم المجمد لم یکن طعمه جیداً حتی فی أفواه الکلاب. فلم تمکث الکلاب طویلاً وترکت اللعق وغادرت .. لقد کانت فرحتها حقاً.» (المصدر نفسه: ۱۱٤)

الغروتیسک وروح الدعابة

الفکاهـة، هو الضحک علی أحدهم والسـخریة والتهکّم. (دهخدا: الفکاهة) یرتبط الغروتیسـک بالفکاهة، بما أن الکومیدیا تعدّ إحدی خصائص خلق الشـعور المتضاد؛ فیمکن اعتبار العلاقة بین الفکاهة والغروتیسـک مهمة ومباشـرة. «یختلط الغروتیسک والهجاء معاً فی علاقة ثنائیة وداخلیة، بحیث یصعب تحدید أی جزء من العمل هو هجاء أو غروتیسک.» (تسلیم جهرمی وطالبیان، ۱۳۹۰ش: ۷)

من الجوانب الشائعة الأخری للغروتیسک والفکاهة هو التغریب. فی کلتا الطریقتین، محاولة فی أن: «ینظر إلی العالم الملموس بشکل آخر من قبل المتلقی من أجل إثارة مشاعره تجـاه الأمر المهمل. فی الفکاهة، یتم هذا التغریب عبر إعطاء الحقائق والمواقف حجماً أکبر منها أو أصغر، بینما فی حالة الغروتیسک، یتم هذا التغریب بطریقة مختلفة.» (صفایی وأدهمی، ۲۰۱۳۱۳۹۱ش:) یتحقق التغریب من خلال اختلاط المشاعر غیر المتجانسة.

علی الرغم من أن الفکاهة والغروتیسـک یرتبطان ببعضهما، لکن «الدعابة عقلانیة فی المقام الأول من حیث وظیفتها ومتلقیها، والغروتیسک عاطفی أساساً.» (طومسون، ۱۳۹۰ش: ۵۸) یذهـل الغروتیسـک المتلقی أو القارئ ویشوشـه، لکـن الفکاهة تمنح القارئ فرصة عقلانیة للتواصل مع الموضوع. فی الروایة المذکورة، یتم اسـتخدام روح الدعابة فی شـخصیة مثل بهرام، فی بعض الأحیان یجری علی لسانه التعبیر عن نکات

شـيقة وأحياناً غـير لطيفة. «الضحک الخالـی من الحماس فی الغروتيسـک، هو فی الواقع وسيلة للتعبير عن نقاط الضعف والقصور والتناقضات وتنبيه القارئ بما هو حق وشـر وفساد. ستجعلک فکاهة جوجول وتشـخوف تضحک أيضاً، لکن الضحکة التی تسبّبها الغروتيسک علی شفتيک هی ضحکة مريرة وشريرة فی نفس الوقت.» (راستی، ۱۳۸۸ش: ۱۱۷)

يتمثـل فن الکاتب فـی هذه الرواية فی أنه يمکنک رؤيـة العالم الحقيقی من جديد مـن خلال الجمع بين العناصر الغريبة عن بعضها مثـل الحرب، الفکاهة والمزاح. يخلق مشـهداً جديداً للمعتقدات الشائعة والموجودة، وهو مشهد غريب: مضحک ومزعج. إن تقـديم هذا المشـهد ليس أمراً غير موثق، بل هو أمر واقعی. مـا يميز روح الدعابة عند دهقـان، هو تعبيره عن حقيقة الحرب التی يمزجها بالسـخرية والمـرارة معاً، مما يجعلها قريبة من الفکاهة وإلی حد ما إلی الهزل. الفرق بين السـخرية والهزل، هو أن السخرية أو الفکاهة تعدّ عملاً ولکن الهزلی يفعل ذلک فقط من أجل التلذذ والاسـتمتاع سـواء لنفسـه أو للآخرين. (دهخدا، لفظ "طنز" بمعنی الفکاهة) والکاتب يسـتخدم أحياناً فی الذکريات والأناشـيد التی يرويها علی لسان بهرام، فکاهة الموقف والتعبير" لخلق جو مـن المرح والدعابة وإزالة المأسـاة الناتجة عن سـاحة المعرکـة. فکاهة "الموقف" هی الدعابة التی «يحاول الکاتب خلق جو روح الدعابة من خلال اسـتبدال الشـخصيات ووضعها فی مواقف غير متناسـبة من حيـث الزمان والمکان أو تغيير مواقفها. فی هذا النـوع من فکاهـة القتال والمواجهة يخلق روح الدعابة، وهـذا يحدث بغض النظر عن التعبيرات والکلمات.» (قيصری وصرفی: ۱۳۸۸ش: ۱۱۹) فی الواقع تنشـأ حالة من فکاهة "الموقف" بفضل وجـود الحيوانات التی تحمل المعدات. عندما يذهب بهرام إلی الله مراد ليأخذ الحيوانات، فإنه يحاول أن يختار أفضلها وأکثرها رشاقة، وعندما يفشل، يقول مازحاً: «يا أخی،، هذان الحميران زوج وزوجة ... يبدو أن الجميع فی المجموعة أعزب، و هذا ليـس بالأمر الجيد، إنه قبيح أمام هؤلاء الأطفال الصغار ...إنهم يفهمون أکثر منا نحن البشر. دع الأمر ولا تهتم.. إذهب يا أخی! ماذا أفعل بکل هذه الحمير؟ » (دهقان، ۱۳۹۳ش: ۲۹)

بهرام شـخصية بارعة ومنفتحة فی الروایة، وهی أداة الکاتب لخلق فکاهة التعبیر. تنشـأ فکاهة "التعبیر" بناءً علی القدرات اللغویة. تعتـبر الفنون والصناعات الأدبیة مثل التوریة والتلمیحات والاستعارات والألعاب اللغویة أساساً لإنشاء فکاهة التعبیر. (قیصـری وصرفـی: ۱۳۸۸ش: ۱۱۹) یغنی بهـرام العبارات المضحکـة التالیة لتعزیز معنویات الآخرین.

- در جبههها مولا
- پارتی فراوان است
- هرکس ندارد پارتی
- جاش در بیابان است (دهقان، ۱۳۹۳ش: ۱۹)
- -یا سیدی فی الجبهة
- -الوساطة هی کل شیء
- -ومن لم تکن لدیه وساطة
- -فمکانه فی الصحراء

الغروتیسک والواقعیة

تسـتند الروایة غالباً إلی الواقع. ولا تسـتثنی روایات الحرب والدفاع المقدس من هذه القاعدة. هناک العدید من الکتّاب الذین کانوا حاضرین فی ساحة المعرکة وقدّموا ملاحظاتهم وذکریاتهم فی شـکل أدب روائی بعد انتهاء الحرب بسـنوات. أحمد دهقان هو أیضاً کأحد هؤلاء الکتّاب، شـهد الحرب وسـاحة المعرکة مـن قریب وکتب روایة بنـاءً علی مـا رآه. یعتقد بعض الأدباء، أن هذه الروایة تتبع مدرسـة المذهب الطبیعی، والطبیعیة هی مدرسـة أدبیة مشتقة من الواقعیة التی کانت شائعة فی أوروبا فی أواخر القرن التاسـع عشر؛ وفقاً لهذه المدرسـة، فإن جمیع ظواهر الوجود موجودة فی الطبیعة وفـی حدود المعرفة العملیة والتجریبیة. (انظر: داد، ۱۳۹۲ش: ٤٥٦) لا ینوی الکاتب التعامـل مع الجوانب والآراء الطبیعیة فی هذه الروایة، بل فی المدرسـة الطبیعیة، یتم التعامل مع الحقائق بطرق خاصة.

الغروتيسك هو شكل ونوع ونظرة يستخدمها الكاتب فى كتاباته، واختلافه عن الواقعية، هو دور الخيال فيه. يحاول الكاتب من خلال توظيف الغروتيسك الحفاظ على حدوده مع عالم الأناقة (الخيال) وهو أقرب إلى العالم الحقيقى ويعكس الواقع. لكن الواقعية موضوعية تصف ما تراه، ويمكن أن يشمل هذا الوصف تعبيراً عن القبح مأخوذاً من العالم الحقيقى. بما أن لدهقان حضوراً طويلاً فى الحرب والجبهة، فقد اعترف بنفسه: «حول نطاق الخيال فى رواية "التجول فى أرض الغرباء" على أن أقول إن هذا العمل ليس خالياً من الواقع ويمكن العثور عليه فى تاريخ الحرب.» (وكالة أنباء تسنيم / ١٤٠٠ش) ما قاله دهقان مبنى على الواقع. لأن المزج بين ما هو واقع وغير واقع، سمة من سمات الغروتيسک، حيث تترک رواية "التجول فى أرض الغرباء" القارئ فى حالة من الصدمة والرعب فى نفس الوقت الذى تدفعه نحو الجانب الكوميدى.

يحاول الغروتيسک أن ينفصل عن عالم الخيال ويثبت أسس الواقعية فيه. «لا يربط هوغو الغروتيسک بالخيال بل بالواقع ويقول بوضوح إن الغروتيسک ليس مجرد أسلوب أو صنفاً فنياً، بل هو موجود فى الطبيعة وفى العالم من حولنا. فى كتاب، روبرت براوننج، نقل جى كى تشيسترتون[1] الغروتيسک من عالم الفن الخيالى إلى عالم الفن الواقعى (الأنيق) ويدعى أنه بمساعدة الغروتيسک، يمكن تقديم العالم فى ضوء جديد دون أى تدخل، ومن الممكن أن يجعلنا نرى العالم (الواقعى) من جديد، ومن منظور جديد، على الرغم من أنه غريب ومؤلم، ولكنه على أى حال موثق وواقعى.» (طومسون، ١٣٩٠ش: ٢١) التضخيم والمغالاة، هى من الأسباب التى تجمع بين الغروتيسک والأناقة (الخيال). لكن عالم الغروتيسک، على الرغم من كل ما يحمله من العجائب، إلا أنه ليس بعيداً عن عالم الخيال فحسب، بل هو عبارة عن صورة للعالم المألوف والحقيقى. فى الغروتيسک، إذا كان المجرى العام الذى تحدث فيه القصة غير قابل للتصديق والقبول، فلا يوجد فى الواقع أى غروتيسک. (انظر: جزينى، ١٣٧٠ش: ١٠٤)

نظراً لخصائصه، يمكن أن يوفر الغروتيسک الأرضية لحقائق خفية. يعبّر أحمد دهقان عن الخصائص الغروتيسكية للشخصيات على لسان شخصيات الرواية، والتى تتجلى

1. G. K. Chesterton

فی شـکل تشوهات سلوکیة – سببها الماضی – ولا تتوافق مع أجواء الجبهة والحرب. أحد هذه الشـخصیات هو عبـد الله. وقع قبل الثورة فی حب شـیرین وهی مغنیة فی الملاهی، وتزامناً مع انتصار الثورة هربت شـیرین مع شخص یدعی خسروه الذی کان یحبها أیضاً. یحضر عبد الله فی الجبهة مع بدایة الحرب لینسـی شیرین، لهذا تری مظهره وخطابـه مختلفاً عن الآخرین. فهـو یقتنص الفرص للخوض فـی الذکریات الجمیلة. «وضع یده الیسـری تحت رأسـه واسـتلقی علی جنبه ... ذهب ببطء إلی الماضی، إلی الماضی البعید، إلی أیام شـارع لاله زار، عندما ذهب إلی ملهی داریوش للمرة الثانیة تحدیداً لرؤیة شیرین.» (دهقان، ۱۳۹۳ش: ۳٤) من خلال هذه الشخصیة، یعبّر الکاتب عن خطابات حقیقیة ولکن غیر تقلیدیة بأجواء قصص تروی عن الدفاع المقدس.

«أیها الشاب، اسمع جیداً، علیک ألا تجری وراء امرأة أو حافلة أو قطار، فی النهایة سـیتم العثور علی واحدة منها لترکبها!» (المصدر نفسـه: ۱۱) أو فی مکان آخر، « أیها الشاب إن الشای والحب عندما یکونان ساخنین، یکون لهما طعم، وإلا عندما یبردان، فلا طعم لهما.» (المصدر نفسه: ٤۳) بعد دخول القوات، الأراضی العراقیة لتنفیذ العملیة، تدخل القوات مدینة تسمی ماوت لأخذ قسطاً من الراحة والاستقرار فی منازل محددة سـلفاً، تدخل قـوات المجموعة الأولی منزل امرأة، وهناک تجـری محادثة بین عبد الله والمرأة. فبیئة عبد الله الماضیة مؤثرة فی تعبیره. عبد الله الذی لم یتوقع أن یری صاحب منزل مدنیاً وسـط تلک المعرکة، قال وهو متعب – بلهجة من المزاح والجد–: ما شأنکِ والحرب یا امرأة؟!

نظرت إلیه المرأة فی الظلام وقالت بحقد: الحرب مأساة مثل الکولیرا التی لا تعرف الرجال والنساء کباراً وصغاراً عندما تنتشر. الله یعلم متی تنتهی ... قال عبد الله: الحرب والنار والمرأة السیئة ثلاث مصائب عظیمة تنزل علی البشر یجب تجنبها قدر المستطاع. مثل زوجک المسـکین الذی غادر ورحل! .. ضحکـت المرأة وقالت: «هو أیضاً مثلک یائـس یجول فی الجبال والثلج، ومثـل کل الرجال یقتل زوجته حزناً.» (نفس المصدر: ۸٤–۸۵) إن إحبـاط عبد الله من ماضیه والحبیب الذی جفاه، کان له التأثیر فی نظرته السلبیة للمرأة.

نظـراً لخصائص الغروتيسـک فی اتجاهه نحو الواقعية، فقـد تمكن من الحفاظ على حـدوده جيداً مـع الخيال فی روايـة "التجول فـی أرض الغرباء"، وعلـی الرغم من الخصائص الغروتيسـكية فی شـخصيات الرواية، فإن القصة ليسـت بعيدة عن الواقع والغروتيسـک هنا مرتبط بالواقعية. إن الغروتيسک فی الرواية بعيد كل البعد عن عالم الوهـم والخيال، وقد خلـق الكاتب، بالنظر إلى الانحراف الموجـود، الطبقات التحتية والمخفية الممزوجة بالغروتيسـک بتعبير مضحک، وهو أمر لا يرضی القارئ أحياناً. فی أجواء الحرب المرعبة، فإن ترک المشاعر خارج حدودها والدخول فی حدود المشاعر الأخری – حتی فی العالم الحقيقی – يتطلب غروتيسكاً، وهذا التضاد الناشئ هو نتيجة الغروتيسک. «لا يعبّر الغروتيسک عن التناقضات فحسب، بل يسعی للتعبير عن المعنی الثالـث الذی هو دائماً بعيد عنا. ينشـأ هذا المعنی الثالـث من التناقض بين فكرتين و مشاعرين أو أفكار ومشاعر مألوفة.» (جزينی، ١٣٧٠ش: ١٠٣)

الغروتيسک والصور الخيالية

فی رواية "التجول فی أرض الغرباء" لم تعبّر التشـبيهات المبنية على أجواء الحرب الرهيبـة وبرودة المنطقـة عن أی جمال يذكر، بل تعبر عن مأسـاة الحـرب ومرارتها. أصبحـت الأجواء مرعبة مـع قصف القوات العراقية. إن الإنـارة والإضاءة والألعاب النارية وتشبيه قطع رأس الشخص كالثمرة الناضجة أثناء القصف يجسد مشهداً مرعباً. فی كثير من الأحيان، عادة يكون المشـبه به أقوی؛ لكن فی بعض التشـبيهات، يقارن شیء صعب، ومؤلم، بشیء بسيط وغير مؤلم كقطف ثمرة ناضجة.

فـی منطقـة لا يوجد فيها مكان تختبئ فيه القوات وتؤويهـا والثلج والبرد القارس فـی كل مكان، فی هذه الحالة لابد أن يعدّ إنقاذ الأرواح أمراً مهماً، إلى جانب مقاومة العـدو، لذلک مـن الطبيعی أن يصف الكاتب المشـاهد ويصوّر هـروب الناس وحتی الحيوانات؛ لكن اسـتخدام التشـبيهات المذكورة ونبرة دعابة دهقان والتعبير عنها هی فكاهة خالية من الفرح. تتميز مشـاهد الحيوانات التی تُقتل والتی تُسـتخدم فی حمل المعدات بإحساس متباين من الرعب والكوميديا؛ على الرغم من أن الشعور بالاستياء

والخوف یسیطر علی الجانب الکومیدی منه أکثر.

««آق ماشال الذی شعر بالموت، وقف للحظة وتنهد ونخّر، وصاحب الساق السوداء الذی کان إلی جانبه صرّ أذنیه للاستماع. لم یتوقف أق ماشال. ألقی صندوق الذخائر علی الأرض وهرب. ورأی بقیة البغال تجری خلفه ... بدأ قصف الطائرة یدور مثل آلة الخیاطة.» (دهقان، ۱۳۹۳ش: ۷٦)

«قال ابراهیم بصوت عال: هل نحن فعلا ذاهبون لعملیة؟ أنا .... أقصد أننی خلال هذه الفترة لم أکن فی أی عملیة ولا أعرف کیف هی. أعنی ... بصراحة، لا أعرف ما هو شکل الموت ... أنظر أیها الشاب! الدنیا کراقصة ترقص لبعض الوقت أمام الجمیع ثم تغادر فجأة دون أن تتوقع منها ذلک ... الموت لیس فظیعاً ... بل الاحتضار مخیف.» (المصدر نفسه: ۱۵-۱٦) أو فی تشبیه آخر، «ألقوا الجثث التی جفّت کالخشب، فی الوسط وأربعة أشخاص، أمسکوا بجوانبها الأربعة بشق الأنفس وانتشروا وساروا باتجاه الخلف. لم یکن هناک خیار آخر.» (المصدر نفسه: ۱۱۷)

وذکر الدکتور فتوحی فی کتابه "بلاغة التصویر" أن «الدهشة والاستغراب من عالم الفن بالنسبة للفرد، هی المصدر الرئیس للشعور بالجمال ومصدر السعادة والإثارة.» (فتوحی، ۳۱۸: ۱۳۹۷) لکن فی هذه الروایة، یتحدث دهقان عن بشاعة الحرب، ویتحدث عن واقع یمکن رؤیته فی الجبهة حسب قوله. فإن الصور الخیالیة کالتشبیه فی هذه الروایة، تجسد صوراً غروتیسکیاً؛ لا تصور الجمال، لکنها تسلط الإحساس بالألم والحزن، محاولة لنقل مفهوم الموت إلی القارئ بنبرة فکاهیة.

النتیجة

روایة "التجول فی أرض الغرباء" التی کتبها أحمد دهقان، علی عکس العدید من الأعمال السابقة التی تحتوی علی شجاعة وبسالة أبطال الدفاع المقدس، فهی تصوّر الحرب من منظور مختلف. القصة والحوادث هی حقائق الحرب التی لا یمکن إنکارها والتی تحتوی علی مواضیع حاسمة لهذا الحدث المهم فی البلاد. وظروف مضطربة غیر مستقرة ناتجة عن عملیة جرت فی أراضی العدو، وقد فُسرت فیما بعد علی أنها تجوال

وبلا جدوى.

فـــى هذه الرواية، لا يريد الكاتب أن يقدّم صورة نمطية من الحرب للقارئ؛ بدلا من ذلک، ينوى تقديم صورة حقيقية للحرب وجيشـــها من منظور إنســـانى. شخصية الفتى الأسمر المليء بالروحانية ولكن ليس الروحانية التى نواجهها ونكررها كل يوم. لا يريد خالق الرواية أن يتعامل مع الشـــخصيات والأصناف فى شكلها المشترک. يريد دهقان أن ينبّه الأجيال التى لم تر الحرب بوجود طبقات مختلفة من الأفراد فى الحرب للدفاع عـــن الوطن. الطبقات التـــى ورد ذكرها فى العديد من الروايات الأخرى؛ لكن هنا يتم التعامل معها بشكل مختلف وبعيداً عن الصور النمطية الشائعة فى الروايات الأخرى.

الغروتيســـک نوع مـــن النظرة إلى الواقع المحيط بنا؛ الذى مـــن خلاله ينقل الكاتب رســـالته من منظور آخر وتتألف من مشـــاعر غير متجانســـة؛ يخلق عدم التجانس هذا، شـــعوراً متضارباً وغريباً فى نفسية الشـــخص كما يخلق شعوراً بالدهشة والارتباک بين الضحک والكراهية، وهو ما يمكن اعتباره مفهوماً عاطفياً جديداً. يصوّر دهقان المشاهد المأساوية التى يعبّر عنها بالسواد والأجواء المرعبة للمنطقة بموقف غروتيسكى. وهو لم يستخدم الملامح الغروتيسكية كلها بما فى ذلک التشوهات التى تظهر عادة فى الجسم، فلم نلاحظها فى عمله هذا قط، لكن الاختلال والازدواجية النفســـية يمكن ملاحظتها فى شخصية عبد الله وفى أجواء العملية.

كما أن الســـخرية والفكاهة فى حوارات الشخصيات التى جرت فى أجواء مرعبة تمثلت فى موت الشـــخصيات من لحظة إلى أخرى، استخدمها الكاتب وجعلها موضوعاً لعمله، ليصور بُعداً مختلفاً للعملية بطريقة ساخرة وناقدة إلى جانب رسمه الابتسامة على شـــفاه المتلقى. فهو يخلط السخرية مع الرعب مستخدماً التشبيهات نتيجة معرفة الطبيعة المأساوية للحرب. دهقان كاتب ملتزم فهو ينظم المحتوى حسب التزامه ككاتب فى مجال الدفاع المقدس. من خلال ربطه الغروتيسک بالواقعية، ترک عالم الخيال والأناقة ودخل عالم الفن الواقعى.

كمـــا يمكن القول إن عناصر الرواية، أى الفضـــاء (الأجواء) ونبرة الحوارات، لعبت الـــدور الأهم فى خلق الملامح الغروتيســـكية فى هذه الرواية. إن الجو المرعب للحرب

– المصحوب بقصف العدو من حين لآخر يشكل أساس الرواية الرئيس، وقد خلق دهقان، بمساعدة الفضاء والجو الذی خلقته عناصر أخری، قصة غروتيسكية من دون أن يخطط له من قبل. دهقان مجاهد وكاتب متمرس فی مجال الجهاد والدفاع. على الرغم من أن رأيه فی هذه الرواية خارج عن النسق الشائع فی مجال الجهاد والدفاع، إلا أنه لا يمكن استبعاده بأی شكل من الأشكال من دائرة كتّاب الدفاع المقدس، لكن يجب أن يقال بنظرة لا تخلو من النقد، لقد نظر إلى بعض الأحداث من خلال النظرة الغروتيسكية والفكاهة– والتی كان من الممكن وضعها فی هذا الإطار. وهو يعدّ من كتّاب الدفاع المقدس حيث كان حاضراً فی الساحة، لذلک فهو ينوی بالتأكيد تسجيل الأحداث ونقلها لقارئ اليوم الذی هو خارج عن السياق الخاص بمجال الدفاع المقدس، مع التعبير عن وجهة نظره النقدية بأساليب فنية مختلفة.

المصادر والمراجع

الكتب

القرآن الكريم

آدامز، جيمز لوتر. ويلسون يتس. (۱۳۹٤ش). *گروتسک در هنر وادبیات* (الغروتيسک فی الفن والأدب). الترجمة: آتوسا راستی. ط۲. طهران: قطره للنشر.

طومسون، فيليپ. (۱۳٦۹ش). *گروتسک در ادبیات* (الغروتيسک فی الأدب). الترجمة :غلامرضا امامی. ط۱. طهران: شيوا للنشر.

_____. (۱۳۹۰ش). *گروتسک*. (الغروتيسک). ترجمة: فرزانه طاهری. ط۱. طهران: نشر مركز.

داد، سيما. (۱۳۹۲ش). *فرهنگ اصطلاحات ادبی* (قاموس المصطلحات الأدبية). ط٦. طهران: مروارید.

دهقان، أحمد. (۱۳۹۳ش). *پرسه در خاک غریبه* (التجول فی أرض الغرباء). ط۲. طهران: نيستان للنشر.

فتوحی رودمعجنی، محمود. (۱۳۹۷ش). *بلاغت تصویر* (بلاغة التصوير). ط۵. طهران: سخن للنشر.

فرهنگ دهخدا (قاموس دهخدا).

المقالات

تسليم جهرمی، فاطمه و يحيی طالبيان. (۱۳۹۰ش). «تلفيق احساسات ناهمگون و متضاد گروتسک در طنز و مطايبه» (الجمع بين المشاعر غير المتجانسة والمضادة للغروتيسک فی الفكاهة والمزاح). *مجله الفنون الأدبية فی أصفهان*. السنة الثالثة. العدد۱.(التسلسل٤). صص ۲۰–۱

ثابت قدم، خسرو. (۱۳۸۳ش). «گروتسک در نثر ناباکوف» (الغروتيسک فی نثر نابوکوف). *مجلة سمرقند*. العدد ۳و ٤. صص ۲۱۰-۲۰۱

جزینی، جواد. (۱۳۷۰ش). «ناهمگونی احساس- نگاهی به کتاب گروتسک در ادبیات نوشتة فلیپ تامسون» (عدم التجانس فی الشعور - نظرة علی کتاب الغروتیسک فی الأدب بقلم فیلیب طومسون). *سوره ویژه ادبیات داستانی*. العدد ۱۲. صص ۱۰۵-۱۰۲

راستی یگانه، فاطمه. (۱۳۸۸ش). «جستاری در گروتسک» (دراسة فی الغروتیسک). *فصلنامه هنری صحنه* (فصلية صحنة الفنية)، العدد ٦٩. صص ۱۱۸-۱۱٦

شربتدار، کیوان وشهره انصاری. (۱۳۹۱ش). «گروتسک وادبیات داستانی، بررسی مفهوم گروتسک و کاوش مصداق‌های آن در داستان‌های کوتاه شهریار مندنی‌پور» (الأدب الغروتیسکی والأدب الروائی، دراسة دلالة الغروتیسک وتحلیل ملامحه فی القصص القصیرة لشهریار مندنی پور). *مجله ادبیات پارسی معاصر* (مجلة الأدب الفارسی المعاصر). السنة الثانیة. ش۲. صص ۱۲۱-۱۰۵

صفایی، علی وحسین أدهمی. (۱۳۹۱ش). «بررسی و تحلیل مؤلفه‌های گروتسک در داستان بچه‌های قالیباف خانه اثر هوشنگ مرادی کرمانی» (دراسة وتحلیل العناصر الغروتسیکیة فی قصة أطفال حیاکة السجاد لهوشنک مرادی کرمانی). *همایش پژوهش‌های ادبی* (ملتقی الدراسات الأدبیة). جامعة الشهید بهشتی. الدورية ٦.

فلاح قهرودی، غلامعلی وزهرا صابری تبریزی. (۱۳۸۹ش). «نقیضه و پارودی» (النقیضة والمحاکاة الساخرة). *پژوهش‌های زبان و ادبیات فارسی دانشگاه اصفهان* (دراسات اللغة الفارسیة وآدابها فی جامعة أصفهان). الدورية الجدیدة، العدد ٤. صص ۳۲-۱۷

محمدی فشارکی، محسن و فضل‌اله خدادادی ویوسف افشارنیا. (۱۳۹۲ش). «بررسی و تحلیل عناصر ساختاری گروتسک در برخی داستان‌های فارسی وخارجی» (دراسة وتحلیل عناصر بنیة الغروتیسک فی بعض القصص الفارسیة والأجنبیة). *مجلة مطالعات و تحقیقات ادبی* (مجلة الدراسات والبحوث الأدبیة). العدد ۱۷. صص ۱۰۹-۸۹